تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

شاعرة مصرية تودع الحياة :

فى اليوم الثامن من نوفمبر عام ١٩٤٩ صـــدر عدد الرسالة الأسبوعى يحمل فى أول كلمة من تعقيباته « قصة الدموع التى شابت » ... وفى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم نقل إلى التليفون صوت الشاعرة (ن . ط . ع) حزيناً كالعهد به ، خافتا كأنما يأتى من بعيد ، قاتما كأنما تعكس نبراته لون شعور عاش فى الظلام : هل يتسع وقتك لأن أقرأ لك هذه القصيدة التى فرغت منها منذ دقائق ؟ تفضلى يا ناهد ! ... هل تعدنى بنشرها فى « الرســالة » يوم أن تتحدث عنى بعد الرحيل ؟ أعدك يا آنسة ! ... إذن فاستمع إلى ولا تعترض ، لأنها شعر غير موزون :

« جاء إلى الحياة والدمع فى عينيه ، ورحل عنها والدمع فى عينيه ... وتلك هى قصته : قصــة الدمع الذى شاب والشعر فى سواد الليل ، والروح الذى اكتهل والعمر فى ربيع الأمل ، والزهر الذى صوح والعطر فى رياض الشباب !

من هو ؟ لا أحد يعرفه ... لقد عاش غريبا فى دنياه : همسة تنطلق من فجاج الصمت لتتلاشى فى سكون العدم ، وومضة تشع من وراء الأبد لتخبو فى ظلام اليأس ، ولحن ينساب من أوتار الزمن ليشجى كل عابر سبيل !

يخيل إلى أنه لم يكن بشراً من البشر ... لقد كان روحا . روحا شرب من خمرة الأسى المعتقة فى دنان الشجن حتى ثمل ، وكأن الأيام حين طافت عليه بكئوسها قد ثملت معه فنسيت غيره من الشاربين ! وكان طيفا : طيفا شفه الحزن حتى لكأن الوجود مأتم كبير ، ترملت فيه أحلامه وعنيت بالثكل أمانيه ، فكل تعزية فى حساب الشعور وهم لا يجدى وسلوة لا تعين !

تسألنى عنه ؟ لقد كان « قارئا » من قراء الرسالة ، حدثنى عن نفسه يوما فكتبت إليه ، وشكا إلى الحياة فأشفقت عليه ، ثم لم نلتق بعد ذلك إلا فى عالم الرؤى والطيوف ! كل ما بقى منه سطور رأيته من خلالها رأى الفكر ، وصورة رأيته من ظلالها رأى العين ... وما تستطيع يدى بعد اليوم أن تمتد إلى رسائله ، وما تستطيع عينى بعد اليوم أن تنظر إلى صورته . رباه ، إننى لا أخشى أن تحرقنى ناره إذا ما قرأت ، ولكننى أهاب نبش القبور إذا رقدت فيها الذكريات ... ولا أن يلوعنى وهج نوره إذا ما نظرت ، ولكننى أفزع من رؤية الشموس إذا احتضرت على فراش الغروب !

ألا ما أعجب القدر حين يفرق بين الناس ويدفع بكل حى إلى طريق ... بسمة ترف على الشفاه هنا ودمعة تقرح الجفون هناك ، وحياة فى موكب الصفو تمضى وحياة فى موكب الشجو تقيم ، وكأس مزاجها الشهد للسكارى وليس فيها للحيارى نصيب ، وليل يقصر وليل يطول ... وندامى ... ويتامى ... وفرحة يهتز منها شعور وحرقة تلتهب منها صدور ، ويا جرعة الصبر فى قلوب الصابرين ما أعمق مرارتك ، حين يصور لك الوهم أن فى التراب أكوابا من العزاء !

لقد كانت كل رسالة من رسائله تحمل إلى معنى من معانى القبر : فى كلماتها كم شهدت مصرع الفكر ، وفى زفراتها كم شممت رائحة الموت ، وفى أناتها كم سمعت صوت النعاة . وكم أشفقت أن يصبح الظن حقيقة ... وأن أصحو يوما على وقع أقدام المشيعين !

من حمرة الشفق حيث طويت الشمس الغاربة ، يصطبغ اليوم وجدانى وأنا أستعيد ذكرى حياة ... حياة أشبه بحيرة الغريب دفعت به المقادير إلى دار غير داره ، فكل ما فيها خواء يبعث على الشكوى ويغرى بالرحيل !... ولكم وقفت منه موقف الطبيب من مريض تبخرت قطرات الأمل فى شفائه : مبضعى الذى يفتش عن مكامن الداء قلم ، ودوائى الذى يأسو جراح الزمن كلمات . وكان هذا هو كل ما أملكه ... أعالج بالقلم ودماء القلب تنزف ، وأسباب الرجاء تخيب ، وزورق العمر يمخر العباب والضباب إلى شواطىء الفناء !

يقولون : للورد شوك يخون
خداع لعمرى الذى يزعمون
سوى الورد . لم ألق فى جنتى

محمد محمود عماد

رباه، لقد كنت رحيما به حين أخذته ... لقد تحملت سنواته السبع والعشرون فوق ما يحمل طوق الأحياء من عبادك » !

وسكت الصوت المتهدج لحظات ... ثم انطلقت صاحبته تقول : « هذه هي القصيدة التي فرغت منها منذ دقائق ، ثم أعدت قراءتها عليك ... إنها من كلماتك أنت ، ولكن قلمك قد استمد موضوعها من حياتي : الدموع التي شابت ، والزهر الذي صوح ، والروح الذي ا كتهل ، والإنسانة التي لا يعرفها أحد وعاشت في دنياها غريبة ، وهذا الوجود الذي يبدو لعينها دائما وكأنه مأتم كبير ، وهذه التعزية التي تقدمها إلى في التليفون كلما شكوت إليك الحياة ، وهذه الرسائل التي حملت إليك ألف معنى من معاني الغير ؛ كل هذه الأشياء التي خرجت بها من أحاديثي إليك قد سطرتها اليوم على صفحات الرسالة . . . وكأني بك قد نفضت يديك من كل أمل في أن تحبب إلى الحياة ، فرحت تخصني بهذا الرثاء الصادق قبل الموعد المنتظر؛ الموعد الذي طالما قلت لك عنه إنني أترقبه في الغد القريب » !

ومرة أخرى سكت الصوت المتهدج لحظات ... وغمرت شعوري موجة من الأسى وأنا أجيبها في تأثر عميق : « الحق يا ناهد أنني لم أستمد موضوع كلمتي من حياتك ، وإنما كانت هناك حياة أخرى هي التي أوحت إلي ما كتبت ... وما أكثر الذين يشكون إلى الحياة في قصص تفيض بالدمع ، وتتشابه في قصتك وقصصهم ألوان من الحقائق النفسية . حسبك يا آنسة أن تقرأي هذه القصة لتعلمي أنك لا تقفين وحدك في زحمة الوجود متفردة بالمزاج القاتم والطبع الحزين، إن لك هناك أشباها ونظائر ، تتمثل لهم الدنيا من وراء المنظار الأسود وهي غارقة في الظلام ! لو رفعت هذا المنظار عن عينيك وأنت تقرأين هذه القصة لشعت منها في روحك ومضات العزاء ، ولكنك تأبين الا تنظري من خلال ضبابه إلى كل شيء ... إلى الحياة التي تبدو لعينيك مظلمة وهي مشرقة ، عابسة وهي ضاحكة ، حافلة بأشواك اليأس وهي ملأى بزهور الأمل » !

وقالت قبل أن تنهي الحديث وتلقي بسماعة التليفون : «أقسم لك أنني أشعر شعوراً خفياً بأنني لن أعيش ، لأن الحياة لا يمكن أن تحتمل فتاة من هذا الطراز ... لقد كانت « قصة الدموع التي شابت » أشبه بمرآة صافية وقفت أمامها طويلا لأرى نفسي ... وسواء قصدتني بها أم لم تقصد ، فإنني سأضعها داخل إطار يضم صوري الحقيقية التي يجهلها أقرب الناس إلي وتعلمها أنت ... أنت الذي شكوت إليك آلامي فلقيت منك عطف الأخ الشقيق وعرضت عليك شعري فلم تبخل علي بنصحك وتشجيعك ... إن في هذا كله عزاء أي عزاء ، ولكنني أقسم لك مرة أخرى أن الشعور بأن مقامي في هذه الحياة قصير ، حقيقة نفسية ترسب في أعماق رسوب الإيمان بالله ... مهما يكن من شيء فسأذكرك دائما بوعدك ، وهو أن تنشر « قصة الدموع التي شابت » في يوم من الأيام » !!

وماتت ناهد طه عبد البر ... وكأنما كانت تخترق بشعورها المرهف حجب الغيب، وتنفذ بوعيها الباطن إلى ما وراء المجهول... ماتت دون أن تظفر من أحلام دنياها بغير هذا الحلم الصغير ، وهو أن ترى بقصة الدموع التي شابت وهي في رحاب السكون والعدم ! —

* * *

نشأت ناهد في أسرة كريمة ، محافظة ، ترعى حقوق الخلق وتتمسك بمعاني الفضيلة ... ومن هذا الجو الذي عاشت فيه ، جو التقاليد الصارمة والمثل المفروضة والقيم الموروثة ، لم تستطع أن تواجه الحياة والناس بشيء من الشجاعة يتيح لنفسها أن تتنفس كما يريد . . كانت تخشى لقاء الحياة وتشفق على نفسها من ألسنة الناس ، لأن المجتمع المصري في رأيها لم يبلغ من النضج الخلقي ما يجعلها تثق به وتطمئن إليه ! من هنا عاشت في عزلة ، عزلة مريرة قاسية فرضتها عليها ظروف التربية وطبيعة النشأة ، عزلة طبعت آثارها النفسية القاتمة في أول كلمة بعثت بها إلى ونشرت في الرسالة تحت هذا العنوان : « شاعرة حائرة تسأل عن الفن والحياة» . كان ذلك في العدد الصادر بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٩٤٩ ومن كلماتها تلك تستطيع أن تلمس صدق اللوعة وهي تتحدث إلى عن ظلم التقاليد ، هذا الظلم الذي حال بينها وبين التعليم الجامعي الذي كانت تتطلع إليه ، وحرمها فرصة الاتصال بالمجتمع الذي لم تعرفه إلا من طريق الصحف والكتب والخيال !

ولا تعجب إذا قلت لك إن هذه الشاعرة الراحلة قد بلغت من الانطواء على النفس ذلك الحد الذى لم تطق معه أن يعرف اسمها أحد أو يرى وجهها انسان ، اللهم إلا هؤلاء الذين كانت تثق بهم وتلجأ إليهم فى سبيل شىء من العون أو أشياء من العزاء ... ولقد كان كاتب هذه السطور يعلم من أسرار حياتها ما لم يتح للآخرين أن يطلعوا عليه ، لأنه كان موضع ثقتها فى كثير من الأمور . ومع ذلك فهو لم يرها رأى العين فى يوم من الأيام لأن لذلك قصة ستعلمها بعد سطور ... قصة تطلعك على مدى خشيتها من الناس وكلام الناس ، ومدى حرصها على أن تظل بمنأى عن كل ما يثير من حولها الظنون والشبهات! قالت لى يوما فى حديثها التليفونى الذى كان يطرق سمعى كل صباح : « لقد أذنت لى منذ شهور فى أن أضع مستقبلى الأدبى بين يديك وأشهد لقد أخذت بيدى رفعات من أجلى الكثير : فتحت لى أبواب « الرسالة » و « الأهرام » فقرأ الناس شعرى هنا وهناك ، ويا لها من أبواب أمل كانت موصدة فتجدد بفتحها كل رجاء ... والآن لم يبق لى عندك غير أمنية واحدة ، وهى أن تكتب مقدمة ديوانى الذى أريد أن أدفع به إلى أيدى القراء ». وسكتت قليلا ثم قالت : « لقد كنت أزور الدكتور طه حسين منذ يومين ، ومع أنه كما قلت لك غير مرة يعطف على عطف الوالد على ابنته ، فقد خشيت أن أشق عليه إذا ما عرضت عليه هذه الرغبة التى عرضتها عليك ... ومن هنا خطر لى أن ألقاك أنت لأقدم إليك مجموعة شعرى كاملة قبل أن تقدم لها بما شئت من كلمات ».

وتوقفت لحظات قبل أن أقول لها وعلى شفتى ظل ابتسامة : « إننى أعلم يا ناهد أن لقاءك للدكتور طه لم تسمح به طبيعتك النفسية إلا لسبب واحد ، وهو اطمئنانك إلى أن أحدا لن يظن بك الظنون إذا ما جلست إلى أديب قد بلغ مرحلة الكهولة وتخطى الستين ... أما أنا فأخشى إذا ما علمت حقيقة سنى أن تحذفى من قائمة أمانيك هذه الأمنية الأخيرة ، لأننى يا أختاه لم أبلغ الثلاثين بعد » ! .. وهتفت فى صوت امتزجت فى نبراته الدهشة الخالصة بالأسف البالغ : ماذا ؟ لم تبلغ الثلاثين بعد يا لله ، ماذا كان يمكن أن يقول الناس لو أنك كتبت هذه المقدمة؟ أنت بالذات ؟ إن كلمة واحدة تنطلق من لسان جاهل بحقيقتى الخلقية لكفيلة بأن توردنى موارد الهلاك ... أقسم لك أننى ما فكرت فى لقائك إلا لاعتقادى بأنك فى سن الدكتور طه حسين ! هل تغفرلى إعفاءك من كتابة هذه الكلمة التى ان تعفينى من كلام الناس » ؟

وراحت الشاعرة القديسة تعتذر الى ، معللة عن رغبتها فى أن تلقى الأستاذ الزيات ليحل ثلمه عمل قلمى فى تقديم شعرها إلى القراء ... ومهدت لها سبيل اللقاء حتى تم ، وكان الأستاذ صاحب الرسالة ثانى اثنين رأتهما هى رأى العين قبل أن تودع دنيا الأحياء لتعيش فى جوار الله !

لقد عاشت حزينة وماتت حزينة .. هى التى كانت تسكن البيت الأنيق فى حى من أجمل أحياء القاهرة ، وتعيش فى ظل أسرة هيأت لها من رغد العيش وطيب المقام ما لم يتح لكثير من الفتيات ! ولقد كانت العزلة سببا من أسباب حزنها بلا مراء ، ولكنها لم تكن السبب الأصيل لهذا الألم الدفين الذى أحال حياتها إلى أقباس من العذاب ، وانعكس على شعرها لوعة وشكاة وأمسك القلم عن أن أحدثك عن سر حزنها الحقيق ، لأنها الآن تشفق على حرمة ذكراها من كلام الناس !

وأشهد لكم وقفت منهـــا موقف الطبيب من مريض تبخرت قطرات الأمل فى شفائه : مبضعى الذى يفتش عن مكامن الداء قلم ، ودوائى الذى يأسو جراح الزمن كلمات . وكان هذا هو كل ما أملكه .. أعالج بالقلم ودماء القلب تنزف ، وأسباب الرجاء تخيب ، وزورق العمر يخر العباب والضباب إلى شواطىء الفناء!!

أنور المعداوى